

بهرام جور

في التصوير الإسلامي

للدكتور محمد مصطفى

أمين معابد دار الآثار العربية

هو بهرام الخامس بن زردجرد المسلم أحد ملوك الدولة الساسانية المعروف « بهرام جور » ، حكم إيران بين سنتي ٤٢٠ و ٤٣٨ ميلادية . وقد استطاع ببدله وسخائه وفروسيته وشجاعته أن يصير عبيداً إلى رعيته بعد أن كرهوا أباه « زردجرد » الذي اضطهد المجوس في سبيل تمكين المسيحيين من العبادة جهاراً في بلاده . وقد هاجمه خاقان التركستان الصينية بجيش قوامه ١٢٥٠٠٠ رجل ، فاستطاع « بهرام جور » أن يصدّه بجيش من ١٠٠٠٠ رجل من خيرة عماريه وأن يقتله بيده . وكان « بهرام » موهباً في سياسته ، فقد صالح الروم على شروط عادلة بعد أن هزموا جيشه ، وحث الناس على الزراعة وأطعمهم عليها ، وكان يشجع العلماء والأدباء والفنانين والموسيقيين ويدعومهم إلى بلاطه من البلاد الأخرى ، حتى أنه استحضر ذات مرة من الهند ألقي موسيقى من الذكوكو والألثك وفرقهم في بلاده ليطربوا قراء المزارعين دون أجر ، فتوالفوا فيما بينهم وصار منهم القوم المعروفون « بالنجبر^(١) » وانتشروا من « إيران » إلى البلاد الأخرى . وقد كان « بهرام جور » فوق ذلك أديباً شاعراً ، تعلم الشعر في صباه بين العرب في الحيرة ، وقد بقيت هذه الذكرى في الأدب الفارسي والعربي على السواء ، فالفرس يقولون إنه أول من قال الشعر وأنه أخذته عن العرب ، ويروون له أبياتاً فارسية ، والعرب يروون من شعره العربي والفارسي^(٢)

وبقيت « لبهرام جور » ذكرى حسنة بين رعيته فاخترعوا له قصصاً تعبر عن مكانته في قوسهم وتبين عن فروسيته وبطلوته

(١) وهم مشهورون بإجادتهم للموسيقى في أوربا ، وخاصة في بلاد المجر ، ويسمون بالانكليزية Gipsy وبالألمانية Zigenner . أظن أيضاً الشاهنامه لفردوسي ، طبعة الدكتور عبد الوهاب عزام ج ٢ ص ١٠٥
(٢) أظن حاشية الدكتور عبد الوهاب عزام في الشاهنامه ج ٢ ص ٨٠ - ٨١ . وأيضاً ما كتبه الدكتور عزام في نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية ص ١٥٦ . وراجع Franz von Erdmann, Die Schöne vom Schloß, Kegan 1832, S. 5 - 7

ومقدرته في القنص والصيد . وصاروا يتناقلون هذه القصص جيلاً عن جيل حتى نظمها « الفردوسي » في « الشاهنامه » حوالي سنة ٤٠٠ هجرية . ثم أخذها الشاعر نظامي الكنجوي موضوعاً لإحدى منظوماته الخمس ، فنظمها مرة أخرى حوالي سنة ٥٩٦ هـ بعد أن ألبسها ثوباً جديداً من خياله وشاعريته

واستلهم الفنانون وقائع « بهرام جور » في الصيد ومهارته في الرمي بالنشاب في رسم صورهم التفسيرية في مخطوطات كتابي : « الشاهنامه » و « خمسة نظامي » ؛ كما صوروها على الخزف والقاشاني وحفروها على الأواني المدنية ونسجوها في الأقمشة ، وصارت هذه الوقائع موضوعات محببة إلى الفنانين في جميع فروع الفن ، مبتغين بها من الفن الساساني إلى الفن الإسلامي ، حتى وصلوا بها إلى العصر التركي



(شكل ١)

وترى^(٣) في شكل (١) صينية من الفضة المذهبة عليها صورة « بهرام جور » يشج بسيفه رأس أسد ويعسك بيده اليسرى شبلأ صغيراً ، بينما هجمت عليه ليؤة تريد تمزيق رأس جواده . وهذه الصينية محفوظة في متحف الأرميتاج بالروسيا ، وهي من القرن ٥ - ٧ لليلاي ، مما يدل على قدم هذا الموضوع الزخرفي في « إيران » قبل انتقاله إلى الفن الإسلامي^(٤) يقول الشاعر نظامي الكنجوي^(٥) في منظومته « هفت

(١) الصور المروضة هنا من تصور الأستاذ محمد عمود سيد أحمد شلي مصور دار الآثار العربية
(٢) هذه الصورة منقولة من كتاب Orbell et Trever, Sasanide, Moscou, 1935, pl. 10
(٣) Art IV, Pl. 231 و Sarre, Die Kunst des alten Persien, Pl. 104
(٤) أظن خمسة نظامي ، طبعة طهران سنة ١٣٠٠ هجرية ص ٢٩٤ وما بعدها ، والترجمة الانكليزية لمنظومة « هفت بيكر » C. E. Wilson, The Haft-Paika, London 1924, I, 37 f.

ما أسبغته الفنان على هذه الصورة من جمال الحركة وروح الحياة ، وهي من تصوير الفنان الإيراني سلطان محمد ، من مخطوط المنظومات الخمس للشاعر نظامي محفوظ في المتحف البريطاني ، كتب للشاه طهماسب بين سنتي ٩٤٦ و ٩٥٠ هجرية في تبريز ، واشترك في تصوير الصور التفسيرية التي به خمسة من كبار مصوري ذلك العصر : سلطان محمد ، ومظفر علي ، واما ميرك ، وميرزا علي ، ومير سيد علي . وقد كان سلطان محمد من أساتذة الشاه طهماسب في التصوير ، ويقال إنه خلف المصور بهزاد ، عميد فناني إيران ، في إدارة « الورشة » الملكية لفنون الكتاب .



(شكل ٢)

أقن بهرام جور الصيد والطرود ، واعتاد أن يخرج إلى الأحرار المجاوزة لصيد الوحوش والنزلان ، وكان أن شرب يوماً مقداراً من الشراب ، وخرج للصيد فقابل قطعاً كبيراً من النزلان ، وأصاب منها الكثير ، إلى أن رأى ظيلاً جميلاً ، وشيق الحركات أراد أن يقتصه ، فأطلق الظبي ساقيه الرشيقين الطويلين للريح يساقها ، وأعمل بهرام جور مهمازه في جانبي الجنود فأطلق يجري ، يطلب الظبي ، واستمر على ذلك مسافة طويلة إلى أن وصل الظبي إلى قهوة كهف ربض أمامها تين هائل ، بشع الخلفة ذؤاسين عظيمين مد أحدهما إلى الظبي فابتلمه ، وكان التين جائماً وما كان الظبي إلا ليثير شهته لاقتراس الفارس القادم عليه بجواده ، فأخذ بهرام جور سهماً عريضاً من جيبته ، وأطلقه على التين

يَنكَّرُ » ، أي الصور السبع : إن الملك الساساني يزدجرد الأول ، عند ولادة ابنه بهرام ، عهد به إلى النعمان بن المنذر ملك الحيرة ليقوم على تربيته ، وذلك عملاً بمشورة مستشاره من المجوس ، رغبة منهم في إبعاده عنه ، كي لا يتخلق الصبي بأخلاق أبيه البيض لهم . فسلمه النعمان إلى أربع نسوة اخترهن له فأرضعنه ولم يظمنه حتى بلغ الرابعة من عمره . وبني النعمان قصر « الخورنق » لسكنى بهرام ، بناه له معمار من بلاد الروم اسمه « سيمتار » استعداه إليه لشهرته في بناء القصور ، فجاء قصرأ منيفاً من أجل الأبنية . فأهلك النعمان سيمتار كي لا يعود لبناء مثله ويبقى القصر قريداً - وضرب العرب للمثل بجزاء « سيمتار » . وتعلم بهرام الكتابة والقراءة ، والتاريخ والعلوم ، والرياسة والصول والجول ، والصيد والطرود ، فأحبها جميعاً . واشتهر ببراعته في صيد نوع من الغزلان كبير الحجم ، يعيش في تلك الجهات ، ويسمى بالفارسية « كور » فعرف بهرام كور ، وعمرته العرب فقالوا بهرام جور^(١) .

و ذات يوم بمد ما بلغ بهرام جور أشده وصار قوياً وشاباً فتياً ، ركب وخرج للصيد ، وكان في معيته النعمان وابنه المنذر ، وإذا به يرى فجأة سحابة من التراب ترقع من الأرض ، فاقرب منها ، ولما تبينها رأى في وسطها أسداً قد هجم على غزال ، وامطاه وراح يعمل أنيابه في عنقه ليفترسه . فأخرج بهرام جور من جيبته سهماً مديباً ، وضعه في وتر قوسه ، وجذبه بشدة ، ثم أطلقه ، فانطلق السهم في عنف وقوة وأصاب كلا الحيوانين تحت الكتف الأيسر ، واخترق قلبيهما وجسدیهما ، ثم غارق الأرض من تحتها وإلى جانبه سقط الحيوانان كل منهما جثة هامدة . فلما رأى العرب ذلك أعجبوا بهرام جور أيما إعجاب ، وأمر النعمان للمصورين أن يصوروا هذه الواقعة على حائط إحدى قاعات قصر الخورنق^(٢) . وفي شكل (٢) نرى بهرام جور في وسط الصورة على جواد وأمامه الأسد والنزال وقد أصابهما بسهم واحد^(٣) ، ويلاحظ

(١) أنظر أيضاً الشاهنامه ج ٢ ص ٩١

(٢) خمسة: نظامي ص ٢٩٥ . وطون ج ١ ص ٥٠ - ٥١

(٣) منقولة عن كتاب L. Bisson, The Poems of Nizami, Pl. XV. أنظر أيضاً، Martin, A Survey of Persian Art, III, P. 1875 f; Blochet, Miniature Painting, I, 117; II, Pl. 138. Blochet, Miniature Painting, Pl. CXXII. Bisson, Wilkinson, Gray Persian Miniature Painting, P. 115

وابنه المنذر بهرام جور وأمداه بالجند ، حتى أرغم الكارهيين على تسليمه . واتفق معهم على أن يضعوا التاج بين أسدين جاثمين ؛ فإذا انتشله من بينهما كان له ملك إيران ، وقد كان ذلك وقتل بهرام جور الأسدين ولبس التاج ؛ فكان خسرو أول من هنا بالعرش^(١) ولما كان بهرام جور في الحيرة تجول ذات مرة في أنحاء قصر الخورنق ، ووجد قاعة منقطة لم يدخلها من قبل ، فطلب مفتاح بابها ودخلها فإذا به يرى سبع صور ، لسبع أميرات ، هن بنات ملوك الأقاليم السبعة ، ولكن آيات من آيات الجمال ، فسار يلتفت للواحدة بعد الأخرى ويبتسم لها ، وفي غرور الرجل القوي المتد بنفسه ، يظن أن ابتسامته حازت قبولاً لديها ، وأنها توى إليه إشارة إلى ذلك ، وما جاء إلى الأخيرة حتى افتتحت بهن جميعاً وتملك قلبه جهن ؛ فأغلق الباب وأخذ المفتاح معه ، وصار يخرج للصيد ثم يعود فيدخل هذه القاعة ليناجي حبيباته السبع ، وقد هام بهن هياماً شديداً



(شكل ٤)

وفي (شكل ٤) نرى بهرام جور في الركن الأيسر إلى الأمام ينظر إلى الصور السبع في قاعة بقصر الخورنق . وهذه الصورة^(٢)

(١) أظن أيضاً الشاهنامه ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩

(٢) مقولة عن A Survey of Persian art, III 1875; V, Pl. 860

أظن الدكتور زكي محمد حسن ، الفنون الإيرانية ، الصفحة ٣٩

فأعماه ، ثم استل سيفه الكبير وضرب به التين بين رأسيه فشطره إلى بطنه ، حيث وجد الظبي قابلاً ، وما كاد هذا يرى الحرية أمامه حتى قفز من بطن التين وجرى إلى أن دخل الكهف ، وتبعه بهرام جور فوجد في الكهف كنزاً عظيماً من قدور مملوءة بالذهب والأحجار الكريمة ، مما استدعى نقله إلى قصر الخورنق سنة ١٠٠٠ هـ ، أرسل عشرة منها إلى أبيه يزدجرد ، ووهب النعمان عشرة أخرى ، واستمتع هو بالباقي على أن يتفق منها بغير زقيب^(٣)



(شكل ٣)

وفي شكل (٣) نرى بهرام جور على جواد في وسط الصورة يرى التين بالثياب ، وهذه الصورة^(٤) من مخطوط لنظامي محفوظ في المتحف البريطاني ومؤرخ سنة ٩٠٠ هجرية ، وهي من تصور الفنان الإيراني قاسم علي ، أحد تلاميذ بهزاد في هرات ، وكان قاسم علي ينقل في صوره الكثير من موضوعات أستاذه ، فمثلاً هذه الصورة منقولة عن صورة مماثلة لها صورها بهزاد في مخطوط آخر لنظامي محفوظ بالمتحف البريطاني^(٥)

وبقي بهرام جور في الحيرة إلى أن مات يزدجرد ، وأزمع أعيان الفرس الأبولوا من أولاده أحداً لا نالهم من ظلمه وجوره ، وأجلسوا على العرش رجلاً من بينهم يدعى خسرو ؛ فأيد النعمان

(١) خمسة ظلي ص ٢٩٦ . وطون ج ١ ص ٥١ - ٥٥

(٢) منقولة عن Sakisian, La miniature persane, Pl. LIII,

Fig. 93.

(٣) أظن A Survey of Persian Art, V, Pl. 885 B

الفناء والعزف على الجناك^(١) والرقص . وقد اعتاد بهرام جور أن يصطحب جاريته فتنة كلما خرج للمصيد . وفي ذات يوم خرجا معاً قايلاً قطيعاً من الغزلان ، فأصاب منها عدداً كبيراً . كل ذلك والجارية تحتال بكل ما أوتيت من أنواع الإغراء والدلال أن تكبح نفسها من أن تمطيعها يستحق من الإطراء والمدح . صبر الملك برهة إلى أن مرَّ غزال عن بمد ، فالتفت إليها وقال لها ألا أيها التتيرة ذات المينين الضيقتين ، لم لا تفتحين عينيك لترى ما أصيد ؟ ها هو ذا غزال آت فأخبريني أي جزء من جسمه أصيب ؟ فالتفتت إليه الجارية بشفتيها الجليتين في حركة طبيعية - وقد كانت أصراً بكل معاني الكلمة - وقالت : إعمل عملاً يشرفك : سحر حفر هذا الغزال في أذنه بسهم واحد



(شكل ٥)

وقد فعل بهرام جور ذلك ، فأخذ حصاة وأطلقها على أذن الغزال فرفع المسكين جفاره ليحك أذنه ، وفي ذات اللحظة أطلق الملك سهماً سحر به الحافر والأذن إلى رأس الغزال ، فسقط هذا على الأرض . والتفت الملك إلى الفتاة التتيرة وقال : لقد نجحت فإذا ترى في ذلك ؟ قالت : لقد اعتاد الملك عمل ذلك فأجده ، وأصبح عمله لا يتطلب منه أية قوة خارقة . فانغناظ الملك لهذه الإجابة ، وأمر ضابطاً أن يقتل الفتاة ، فأخذها الضابط إلى منزله لينفذ فيها أمره . ولكن الفتاة نظرت إليه بينين دامتتين متوسلة وأفلحت في أن تقنعه بأن يبقى على حياتها ، وانفقاً على أن تعمل

في مخطوط لنظامي كتب في شيراز ومؤرخ سنة ٨١٣ هجرية وم محفوظ في مجموعة جليبنكيان

ولما تولى ملك إيران ، واستتب له الحال ، أرسل الرسل إلى الملوك السبعة يطلب من كل منهم يد ابنته ، وكان أن تم له ذلك فجنن إليه مع الكثير من الهدايا والتحف وتزوجهن جميعاً ، فأناه مमार يسمى « شيدا » وعرض عليه أن يبنى له قصرأ ذا سبع فياب ، ويفرش كل قبة بلون خاص بها ، ويرصمها بأحجار كريمة من لونها ، فقبل ذلك وبنى شيدا القصر ، وصار بهرام جور يقضى كل يوم من أيام الأسبوع في قبة مع إحدى الأميرات : فيوم السبت في القبة السوداء مع الأميرة الهندية ، ويوم الأحد في القبة الصفراء مع الأميرة المغربية ، ويوم الإثنين في القبة الفضية مع الأميرة التتيرة ، ويوم الثلاثاء في القبة الحمراء مع الأميرة الصقلية ، ويوم الأربعاء في القبة الزرقاء مع الأميرة الخوارزمية ، ويوم الخميس في القبة ذات لون خشب الصندل مع الأميرة الصينية ، ويوم الجمعة في القبة البيضاء مع الأميرة الرومية . وكان إذا ذهب إلى إحداهن لبس ثوباً من لون القبة إكراماً لها^(٢)

وفي (شكل ٥) يجلس بهرام جور في القبة الصفراء مع الأميرة المغربية . وهذه الصورة^(٣) في مخطوط لنظامي محفوظ في متحف للتوروبوليتان بنيويورك ، كتب في هرات ومؤرخ سنة ٩٣١ هجرية ، وهي من تصوير محمود منبأ أحد الفنانين الذين انتقلوا من هرات بعد أن هاجمها الأتابك في سنة ٩٤٢ هجرية وهاجر إلى بخارى عاصمة الأسرة الشيبانية في ذلك الوقت

يقول الشاعر نظامي الكنجوي^(٤) إنه كان لبهرام جور جارية من التركستان الصينية ، جميلة كاللبر ، اسمها « فتنة » ، بها ألف نوع من الثريات ، لها وجه صبوح كالربيع البكر في جنات عدن . أو هي - على حد قول الشاعر نظامي - قطعة من حلوى البصل مدهونة بالزيت ، أو صحن من الفالودج ، أو كليهما معاً ، فهي سميحة وحلوة . ولم تكن جميلة فقط ، بل كانت مجيد

(١) خسة نظامي من ٢٩٧ وما بعدها . ويلسون ج ١ ص ١٠٦ وما بعدها . وانظر أيضاً Franz von Erdmann, S. 12 - 16 و L. Binyon, P. 27 - 29

(٢) صورة عن Sakisian, Pl. LXXIII Fig. 127 . وانظر A Survey of Persian Art III 1869. والدكتور زكي محمد حسن : التصوير في الاسلام ، الصفحة ٤١

(٣) نسخة نظامي من ٣٠٤ وما بعدها . ويلسون ج ١ ص ٨٢ وما بعدها

(٤) الجناك Harpe : وهو آلة موسيقية كبيرة ذات أوتار .

وفي شكل (٧) صينية من الفضة المنهبة عليها رسم بهرام جور



(شكل ٧)

يصطاد الغزال وهو جالس على هجين يرتدف جاريته المغنية وهذه الصينية^(١) من عصر الانتقال من الفن الساساني إلى الإسلامي . وهي محفوظة في متحف الإرميتاج بالروسيا وفي شكل (٨) صحن من الخزف^(٢)

من صناعة قاشان في القرن السادس الهجري (١٢ الميلادي) مرسوم بالألوان فوق اللعان ، به صورة بهرام جور وقد أصاب الغزال فصر حافره بأذنه بسهم واحد ، وهو راكب على هجين ويرتدف جاريته المغنية ممسكة بالجنك ، وقد تتبع الفنان في رسمه قصة بهرام جور والجارية كما نظمها الفردوسي في الشاهنامه^(٣) وهي تنهى بأن يفتاظ بهرام جور من إجابتها فيلقبها على الأرض ويطأها بالهجين إلى أن تموت وترى في هذه الصورة أن الفنان لم ينس تصوير الجارية وهي



(شكل ٨)

على الأرض والهجين يطلأ صدرها ، وقد كان لبهرام جور - كما وصفه الفردوسي - هجين مسرج بسرج منطلي بالديباج له أربعة ركب : ركب من الذهب وركبان من الفضة ، فيركبه ويرتدف الجارية فوق

حجرها الجنك . أما في قصة الشاعر نظامي فيركب كل منهما جواداً كما رأينا ذلك في الصور السابقة

في منزله تكادمة حتى لا تثير الشبهات . وكان في أعلى المنزل منظره عالية تصعد إليها ستون درجة ، وقد اعتادت الفتاة كل يوم أن تحمل عجلة صغيرة وللتحديثاً وتصعد بها الستين درجة إلى المنطرة ، فكانت قوتها تنمو تدريجياً بما يتناسب مع نمو العجل ، إلى أن صارت بعد ست سنوات بقرة كاملة النمو دون أن تجد مشقة في حملها . وذات مساء أعطت الفتاة الضابط بعض لآلها ، وطلبت منه أن يهجي^٤ بشمها مادية فاخرة ينتهز فرصة مرور الملك للصيد ويدعوه إليها . فعمل الضابط ذلك ، وجاء الملك إلى المأدبة وجلس في المنطرة ، فصعدت الفتاة تحمل البقرة على كتفها لتحلب لهم من لبنها أثناء الطعام ، فظفر إليها الملك وقال : لقد تموت حملها ، فأنت الآن لا تحتاجين إلى قوة خارقة لعمل ذلك . فقالت له الفتاة : وهل كان الغزال يحتاج إلى قوة خارقة ؟ فزفها الملك وقام إليها فرفع قباها واحتضنها ، ولم يفصلها بعد ذلك سوى اللوت



(شكل ٦)

وفي شكل (٦) بهرام جور على جواد في الوسط وقد أطلق سهماً أصاب غزالاً أملمه فصر حافره بأذنه . وإلى يسار بهرام جور ترى «فتاة» على جواد وفي يدها الجنك . وهذه الصورة^(١) من مخطوط نظامي للشاه طهماسب السالف الذكر ، صورها مظفر على أحد تلاميذ بهزاد

(١) منقولة عن Orbell et Trever, Pl. 11 وانظر A Survey of Persian Art, IV, Pl. 229, A و Sarre, p. 69, Pl. 106
(٢) منقولة عن A Survey of Persian Art, VII, 1602, V, Pl. 672
(٣) الشاهنامه ج ٢ من ٧٦

(١) منقولة عن L. Binyon, Pl. XVI وانظر Arnold, Painting in Islam, p. 141 و Binyon-Wilkinson-Gray, p. 115 و A Survey of Persian Art, III, 1878 L